

الأوقاف على التعليم

من كتاب: تاريخ التربية الإسلامية «للدكتور أحمد الشلبي»*

قبل بيت الحكمة، كان التعليم يجري في أمكنة غير مخصصة له: كان يلتقي العلماء بالطلاب في المساجد، كما كان الراغبون في العلم، يسعون إلى دور الشيوخ للسمع منهم فيها وهكذا؛ ومن أجل هذا لم تكن هناك نفقات معيّنة تبذل في سبيل نشر العلم. فلما ظهرت الحاجة إلى تأسيس مكان يخصص لرعاية العلم ونشر الثقافة، ظهرت في الوقت نفسه فكرة، أن يوقف على هذا المعهد، وقف يغلّ إيرادًا للإنفاق على شؤونه وشؤون القائمين بالعمل فيه، وكان المأمون أول من أبرز هذه الفكرة إلى الوجود، فإيّه لم يشأ أن يكون نشاط بيت الحكمة متوقفًا على سخاء الخلفاء والأمراء، بل أراد أن يجعل نشاطه قويًا متصلًا سواء أكرميًا كان الخليفة أم شحيحًا، فهيأ للعلماء رزقًا سخيا يتقاضونه من وقف ثابت، يفيض ريعه عن التكاليف المطلوبة لهذه المؤسسة الثقافية⁽¹⁾. وانتشرت فكرة المأمون هذه بين من خلفه من الخلفاء والعظماء، فأصبح من ضروريات إنشاء معهد ثقافي أو مدرسة، أن يعين لها وقف ثابت، تتلقى منه ما يفي بنفقاتها، وما يمدّها بما تحتاج إليه من مصروفات، ثم تطوّر هذا الاتجاه، فظهرت الأوقاف، أيضًا، على الذين يشغلون أنفسهم بخدمة العلم في المساجد، بل إنّ بعض الأركان، أو الأعمدة بالمساجد، كان يوقف عليها أوقاف سخية، يُصرف ريعها إلى من يجلس بها للتدريس والتعليم، وفي ما يلي عرض سريع لنماذج من هذه الأوقاف:

نظام المُلْك: سبق الحديث عن النهاية الأليمة التي نزلت بالمدارس النظامية،

وكيف أنّ نظاميّة بغداد، مثلاً، اختفت في ظروف غامضة، وأنّ مكانها اغتصب منذ عهد سحيق، فلم يعد معروفًا بوجه الدقّة للباحثين والدارسين. ويبدو - للأسف - أنّ هذه النهاية الأليمة حاقت لا بالبناء فحسب وإنما بكثير ممّا كتب عنه أيضًا؛ فقد كان ممّا ضاع على الباحثين هذه الوثيقة التي كتبت فيها وقفيّة نظام المُلْك على مدارسه. لقد ورد ذكر هذه الوثيقة في عدّة مراجع، ولكنّ الباحثين، قديمًا وحديثًا، لم يستطيعوا أن يحصلوا عليها ذاتها أو على نصّها.

وعلى كل حال، فعندنا من المصادر ما يمدّد الباحث، في هذا الموضوع، بمعلومات إن لم تكن كاملة فهي قريبة من الكمال:

قال سبط بن الجوزي⁽²⁾: وفيها (أي في سنة 462هـ) أوقف نظام المُلْك الأوقاف على النظاميّة، وحضر الوزير والقضاة والعدول بيت النوبة، وكتبوا الكتب وأثبتت، وما وُقف سوق المدرسة وضياع وأماكن، وشرطَ [نظام الملك] الشروط المعروفة.

ويقول أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي⁽³⁾ في حوادث السنة نفسها: وفي يوم الإثنين، السادس والعشرين من جمادى الآخرة، جمع العميد أبو نصر الوجوه، فأحضر أبا القاسم ابن الوزير فخر الدولة، والنقيين والأشراف وقاضي القضاة والشهود، إلى المدرسة النظاميّة، وقُرئت كتبُ وقفيّتها ووُقف كتب فيها فكان في الوقف ضياعٌ وأملاكٌ وسوقٌ ابْتُنيت على بابها.

وقد رأى ابن جبير ببغداد نحوًا من ثلاثين مدرسة، وهو يقول إنّ ما فيها مدرسة إلا وهي يَفْضُرُ القصرُ البديعُ عنها، وأعظمُها وأشهرها النظاميّة، التي بناها نظام الملك، ولهذه المدارس أوقافٌ عظيمة وعقاراتٌ، محبةٌ للإنفاق على الفقهاء والمدرّسين بها وللإجراء على الطلبة⁽⁴⁾.

أما ما خُصّص من المال لرعاية الشؤون الثقافية على العموم، وكذلك ريع الأوقاف المعيّنة للمدارس، فإنّ المراجع التي بين أيدينا أوردت تفصيلات نافعة عنها، فقد ورد أنّ ما كان يُنفقه نظام المُلْك في السنة على التعليم قد بلغ 600,000 دينار⁽⁵⁾.

أما الريع الذي كانت تنتجه الأوقاف المخصّصة لنظاميّة بغداد، فقد ورد أنه كان

15,000 دينار في العام⁽⁶⁾، وقد كان ذلك الربيع كافيًا لكل ما يحتاج إليه الشيوخ والطلبة، وكان يشمل مؤونة طعامهم وملابسهم وفرشهم وسرجهم، وغير ذلك من ضرورات معاشهم، حتى نبغ فيها جمعٌ من الفقهاء الأفاضل ممن لا يحصون كثرة⁽⁷⁾. أمّا أوقاف نظام المُلْك على نظامية أصفهان فقد كانت تغلّ 10,000 دينار سنويًا⁽⁸⁾.

نور الدين: في ما يختص بنور الدين، سبق أن أوردنا وثيقة مهمة تبين بوضوح الأوقاف التي عينها للمدرسة النووية الكبرى، وقد ظهر منها أنّ ريعها الوفير، كان يكفي للإنفاق على الطلاب والمدّرسين إنفاقًا متواصلًا سخيا. ومن الممكن هنا، أن نعطي مثالاً آخر لنؤكد هذه الحقيقة، فقد ذكر أبو شامة⁽⁹⁾ أنّ نور الدين وقف على المدارس الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية، وعلى أئمتها ومدّسيتها وفقهائها، أوقافًا كافية، ومن مناقبه أنه عين للمغاربة الذين كانوا يلتحقون بزاوية المالكية بالمسجد الجامع أوقافًا كثيرة، منها طاحونتان وسبعة بساتين وأرض بيضاء وحمام ودكانان بالعطارين، وجعل أحد هؤلاء المغاربة مشرفًا على هذه الأوقاف⁽¹⁰⁾.

الأوقاف على التعليم في مصر *

وحدت الأوقاف على التعليم في مصر، قبل عهد نظام المُلْك ونور الدين بوقت طويل، فمنذ سنة 378هـ خلال عهد العزيز بالله، أصبح الأزهر معهدًا علميًا أكثر منه مسجدًا⁽¹¹⁾، ولذلك نجد أنّ الوزير يعقوب بن كلس، يسأل الخليفة العزيز بالله في صلة رزق جماعة من الفقهاء، فأطلق لهم ما يكفي كل واحد منهم من الرزق الناض وأمر لهم بشراء دار وبنائها، فبنيت بجانب الجامع الأزهر. فإذا كان يوم الجمعة حضروا إلى الجامع وتحلقوا فيه بعد الصلاة إلى أن تصلى العصر، وكان لهم أيضًا من مال الوزير صلة⁽¹²⁾. فلما جاء الحاكم عمّد إلى الأوقاف يعينها للإنفاق من ريعها، على المساجد والمؤسسات الثقافية؛ فلقد أوقف على الجامع الأزهر، والجامع براشدة، ودار العلم، أوقافًا عظيمة ذكرها في سجلّ أشهد عليه قاضي القضاة مالك بن سعيد الفاروقي. وكانت الأوقاف عبارة عن جميع الدار المعروفة بدار القرب وجميع القيسارية المعروفة بقيسارة الصوف، وجميع الدار المعروفة بدار الخرق الجديدة، ويؤكد الحاكم أنّ

هذه الوقفية دائمة إلى الأبد، لا يوهنها تقادم السنين⁽¹³⁾.

فلما جاء الأيوبيون إلى مصر، نقلوا معهم حماسة نظام الملك ونور الدين، وحمائتهما للعلم، ثم وجدوا أنفسهم في مصر، أمام تراث الفاطميين العريق، ومدنيتهم العريضة، التي كان الفن والعلم من أنضر فروعها. فحافظ الأيوبيون على هذا التراث المزدوج، ورعوا العلم، وما بخلوا في الإغداق عليه؛ أنشأوا كثيرًا من المدارس، وأوقفوا عليها الأوقاف السخية، وظهرت موجة من التنافس في هذا السبيل، أخذ فيها الأمراء والوزراء والعلماء والعامّة بنصيب ملحوظ، وفي ما يلي أمثلة موجزة لهذه الأوقاف:

يقول ابن جبير⁽¹⁴⁾ إنّ كل مسجد يستحدث بناؤه أو مدرسة أو خانقة، يعيّن لها السلطان صلاح الدين أوقافًا، تقوم بها وبساكنيها والملتزمين بها، ويضيف المقرئ: إنّ صلاح الدين، عندما بنى المدرسة الناصرية بالقرافة، وقف عليها حمامًا بجوارها، وفرنًا تجاهها، وحوانيت بظاهرها، والجزيرة التي يقال لها جزيرة الفيل ببحر النيل خارج القاهرة⁽¹⁵⁾.

واقصدى بصلاح الدين غيره، ممّن أنشأوا المدارس ورعوا العلم في العهد الأيوبي، ومن هؤلاء تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، الذي اشترى منازل العرّ التي كانت تشرف على النيل، والمعدّة لنزهة الخلفاء الفاطميين، ثم وقفها على فقهاء الشافعية، ووقف عليها الحمام وما حولها، وبنى فندقًا عرف بفندق النخلة ووقفه عليها، ووقف عليها جزيرة الروضة التي كان قد اشتراها من قبل⁽¹⁶⁾. ومن المدارس التي حظيت بوقف سخّي، المدرسة الدماغية بدمشق، وكانت دارًا لشجاع الدين بن الدماغ، فلما مات جعلتها زوجته مدرسة للشافعية والحنفية، ووقفت عليها ثمانية أسهم من أربعة وعشرين سهمًا من المزرعة الدماغية، والحصّة من رجم الحيات، والحصّة من حمام إسرائيل خارج دمشق، والحصّة بدير سلمان من المرج، ومزرعة شخوب عند قصر أم حكيم ومحاکرات وغير ذلك⁽¹⁷⁾.

ويذكر المقرئ⁽¹⁸⁾ ثماني من زوايا جامع عمرو التي كانت تقام بها حلقات تعليمية، ويشير إلى الأوقاف التي وقفت على كلّ من هذه الزوايا، وفي ما يلي إلمامة موجزة ببعضها:

زاوية الإمام الشافعي التي درّس بها فعرفت به، ووقفت عليها أرض بناحية

سنديس، وقفها السلطان الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين. ومنها الزاوية الكمالية بالمقصورة المجاورة لباب الجامع، الذي يدخل إليه من سوق الغزل، رتبها كمال الدين السمنودي، وعليها فندق بمصر موقوف عليها، ومنها الزاوية التاجية أمام المحراب الخشب، رتبها تاج الدين السطحي وجعل عليها دوراً بمصر موقوفة عليها.

وهكذا كانت الأوقاف، في الغالب، هي المورد الذي يُنفق منه على التعليم في العالم الإسلامي، ولكن في بعض الحالات، كانت نفقات التعليم تدفع من الخزانة العامة للدولة؛ ذكر المؤرخون أنّ الوزير ابن كلس كان يُجري، بأمر العزيز بالله، ألف دينار في كلّ شهر على جماعة من أهل العلم والورّاقين والمجلّدين⁽¹⁹⁾.

ومن الأمثلة التي تدعو إلى العجب والدهشة ما رواه ابن بطّوطة⁽²⁰⁾ من أنّ أحمد ملك إيدج كان يقسم خراج بلاده أثلاثاً ويجعل الثلث لنفقة الزوايا والمدارس.

وفي ختام هذا البحث نورد وقفية مهمة، هي تلك التي وقفتها ست الشام أخت السلطان صلاح الدين على المدرسة الشامية الجوانية، وقد خرجت هذه المدرسة وأُخذت داراً، ولكن تبقى منها بابها القديم، وقد كتب على عتبته العليا نصّ الوقفية، وتمتاز هذه الوقفية، فوق أنّ مرجعها هو النصّ المكتوب على العتبة وهو مرجع يوثق به تماماً، بأنّها وقفية مفصلة دقيقة، ثمّ بأنّ طريق إنفاق ريع الأوقاف ورد لنا مفصلاً في مرجع مهمّ هو تاريخ مدارس دمشق للنعمي وفي ما يأتي نصّ الوقفية:

بسم الله الرحمن الرحيم: هذه مدرسة الخاتون الكبيرة الأجلة عصمة الدين ست الشام أم حسام الدين بنت أيّوب بن شادي رحمها الله، وقفتها على الفقهاء والمتفكّهة من أصحاب الإمام (الشافعي) رضي الله عنه، والموقوف عليها وعليهم وعلى ما يتبع ذلك جميع القرية المعروفة ببزينة، وجميع الحصّة وهي أحد عشر سهماً ونصف من أربعة عشر سهماً، من جميع المزرعة المعروفة بجرمانا، وجميع الحصّة وهي أربعة عشر سهماً، وسبع من أربعة وعشرين سهماً من القرية المعروفة بالتينة، ونصف القرية المعروفة بمجيدل السويدا، وجميع القرية المعروفة بمجيدل القرية، وذلك في سنة ثمان وعشرين وستمائة.

أمّا الإنفاق على هذه المدرسة فقد وضع على النسق الآتي:

أولاً- يُبدأ في الإنفاق بعمارة المدرسة، وثمن زيت، ومصاييح، وحصر وبسط،

وقناديل، وشمع، وما تدعو الحاجة إليه.

ثانيًا - يُدفع للمدرّس غرارةً من الحنطة، وغرارة من الشعير، ومائة وثلاثون درهمًا فضّة ناصرية.

ثالثًا - عشر الباقي يُصرف إلى الناظر عن تعبهِ وخدمته ومشارفته للأملاك الموقوفة وتردّده عليها.

رابعًا - إخراج ثلاثمائة درهم فضّة ناصرية في كلّ سنة، تُصرف في ثمن بطيخ ومشمش وحلوى، في ليلة النصف من شعبان، على ما يراه الناظر.

خامسًا - الباقي يصرف إلى الفقهاء والمتفكّهة والمؤدّن والقيّم، المعدّ لكنس المدرسة ورشّها وفرشها وتنظيفها وإيقاد مصابيحها، ويعطى هؤلاء على قدر استحقاقهم على ما يراه الناظر، في أمر هذا الوقف، من تسوية وتفضيل وزيادة ونقصان وعطاء وحرمان.

وقد ذكرت الواقعة أنّ من شروط الفقهاء والمتفكّهة والمدرّس والمؤدّن والقيّم، أن يكونوا من أهل الخير والدين والصلاح والعفاف وحسن الطريقة وسلامة الاعتقاد والسنة والجماعة. كما شرطت، رغبة منها في أن يظلّ الملتحقون بالمدرسة في مستوى ماليّ لائق، ألا يزيد عدد الفقهاء والمتفكّهة المشتغلين بهذه المدرسة عن عشرين رجلاً، من جملتهم المعيد بها والإمام، وذلك خارج عن المدرّس والمؤدّن والقيّم إلا أن يوجد في ارتفاع الوقف نماء وزيادة وسعة، فللناظر أن يقيّم بقدر ما زاد ونما⁽²¹⁾.

المراجع

- * دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع - القاهرة 1954 .
- 1 - Sayed Ameer Ali, a Short History of the Saracens p. 274.
- 2 - مرآة الزمان 121-2 مخطوط بباريس.
- 3 - المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ج 8 ص 256.
- 4 - رحلة ابن جبير 229.
- 5 - ناجي معروف. المدرسة المستنصرية ص 8.
- 6 - محمد عبده. الإسلام والنصرانية ص 98.
- 7 - تاريخ مساجد بغداد للألوسي ص 103.
- 8 - سعيد نفيس. مدرسة نظامية بغداد ص 2.
- 9 - الروضتين 16:1.
- 10 - ابن جبير: الرحلة ص 285.
- * الحديث عن مصر سيشمل أيضاً الحديث عن سوريا؛ إذ امتد نفوذ الفاطميين والأيوبيين والمماليك إلى بلاد الشام في فترات طويلة من حكم هذه الأسر، وعلى هذا فستذكر أمثلة عن الأوقاف في سوريا خلال هذا الحديث.
- 11 - Stanley Lane- Poole: Cairo 123-124
- 12 - المقرئزي: الخطط 2:273.
- 13 - المصدر السابق: 2:273-274.
- 14 - الرحلة ص 275.
- 15 - الخطط 2:400.
- 16 - الخطط 2:364.
- 17 - النعيمي: الدارس 1:236-237.
- 18 - الخطط 2:255-256.
- 19 - متر: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري 1:294 من الترجمة العربية.
- 20 - تحفة النظر 2:31.
- 21 - النعيمي 1:302-303 بتقديم وتأخير.

جامع القرويين

(المسجد والجامعة بمدينة فاس)

موسوعة لتاريخها المعماري والفكري تأليف الدكتور عبد الهادي التازي
(المجلد الأول) دار الكتاب اللبناني (بيروت - لبنان) -
مكتبة بيروت (بيروت - لبنان)

كان جامع القرويين بفاس يتميز أولاً بأنه شيد في مدينة وضع حجرها الأساس لا برسم أن تكون معبراً أو متجرّاً أو مصنعاً ولكن لتكون أولاً وبالذات «دار فقه وعلم»، وثانياً استمرت الدراسة فيها بصفة مطردة منذ الفترات الأولى، ولم تتفكك حلقاتها العلمية حتى في الفترات التي تمت فيها أعمال الترميم والبناء. ولقد كان للقيروان الفضل الأول في تكوين جامعة فاس، وكانت هذه لتلك بمثابة الفرع من الشجرة، لكن القيروان لم تلبث أن تعثرت عثرتها الكبرى في القرن الخامس بتغلب عرب بني هلال، فأصبحت أثراً بعد عين، وكان من شأن ذلك أن يبرز جامعة القرويين، فتألق نجمها، وقوي ساعدها في الوقت الذي ضعف فيه شأن القيروان التي كانت بالأمس من عمد القرويين في التلقي والأخذ. ولم يكن حظ الزيتونة بأحسن حظاً من الجامع الأول، فبعد السنين الزاهرة التي عرفها الجامع والتي جمعت تكراراً ومراراً بين علماء فاس وعلماء تونس في مجالس استمتع بها الملوك والأمراء، بعد ذلك لم ترحمها الأيام فإن الإسبان لم يلبثوا أن قطعوا مسيرتها أواسط القرن العاشر، وكان للتدخل العثماني أيضاً أثره في "تترك" التعليم بالجامع الأعظم...

والأزهر الشريف الذي بدأ حياته العلمية سنة (365هـ) على يد عالم مغربي هو قاضي القضاة أبو الحسن علي بن النعمان القروي، الذي نهض بعبء الرسالة الإسلامية بعد سقوط بغداد، لم يلبث أن ركد بعد ظهور دار الحكمة سنة (395هـ)، ولم ينج من التقلبات والتدخلات أما بغداد التي تحدث ابن جبير سنة (580هـ) عن مدارسها الثلاثين التي كان من أشهرها النظامية والتي تحدث ابن سعيد عن دور كتبها بما فيها مدرسة الشيخ عبد القادر الجيلي (561هـ)، فإن ابن بطوطة لما زار بغداد عام (727هـ) لم يجد أثرًا لكل تلك المدارس، الأمر الذي تفسره زفرة أرسلها ابن بطوطة على ذلك العهد في هذه الكلمة القصيرة: «سبحان مبيد الأشياء ومغيرها»: وهكذا سنجد أنفسنا مضطرين - أحببنا أم كرهنا - أن نحشر السياسة في حديثنا عن هذا الموضوع، أن المغرب باعتبار موقعه الجغرافي، واستماتة أهله في الدفاع عن بلادهم، ظل على العموم محتفظًا بمقوماته كما هي منذ آلاف من السنين، فلم تتعرض مدينة فاس وجامع القرويين للرجات التي عرفتها الجامعات الأخرى.

وإذا عرفنا إلى جانب هذا أن جامعة بولونيا بإيطاليا أسست سنة (1158) وجامعة السوربون عام (1200) وأعقبتهما أوكسفورد وسلامنكا، قدرنا إذن ما تضافرت عليه نقول بعض الأساتذة والمستشرقين والمؤرخين الأجانب ممن كتبوا في شأن فاس، فقد كتب الأستاذ ديلفان منذ زهاء قرن يقول: «لقد كانت مدينة فاس بحق دار العلم بالمغرب، وتعد جامعة القرويين فيها أول مدرسة في الدنيا، وكتب المستشرق الروسي جوزي منذ ثلاثة أرباع القرن يقول: «إن أقدم كلية في العالم ليست في أوروبا كما كان يظن، بل في أفريقيا في مدينة فاس عاصمة المغرب...»، ولما كان الأخوان جان وجيروم طاروا يتحدثان عن القرويين اضطررا إلى الحديث عن مراحلها الأولى بهذه العبارات تحت عنوان (مقبرة الفكر) قالوا: «في هذه القرويين حيث كانت تزدهر علوم الميقات وفن الجبر، في وقت لم يعتن أحد فيه بمهذين الفنون، إلا في إيطاليا وحدها بل في فرنسا كذلك...»، ولما كان الأستاذ روم لاندو يتحدث لرسالة المغرب عن جامعة القرويين قال: «وقد شيد في فاس منذ أيامها الأولى جامع القرويين الذي هو أهم جامعة وأقدمها، وفي القرويين هنا كان العلماء منذ حوالي ألف سنة يعكفون على المباحثة الدينية والمناظرات الفلسفية التي قد تتجاوز دقتها إدراك فكرنا الغربي،

وكان المثقفون يدرسون التاريخ والعلوم والطب والرياضيات، ويشرحون أرسطو وغيره من مفكري الإغريق...» وأخيراً يتحدث عنها الأستاذ لوتورنو في كتابه الحافل عن فاس بهذه الكلمات الصادقة: «... ويمكن الاعتقاد- وإن كانت النقول بين أيدينا لا تعطي معلومات مدققة- بأن هناك دروساً كانت تعطى بكل تأكيد في هذه القرويين من أيامها الأولى...» وترد في ناحية أخرى من الكتاب هذه الجملة الجامعة... لم تعدم فاس في كل وقت من الأوقات أوساطاً مثقفة كان عشها الذي ترعرت فيه ذلك المسجد الذي يسمى القرويين وذلك الواقع هو الذي انعكس على آثار الشعراء والكتاب والعلماء المغاربة ممن تحدثوا في أوائل هذا القرن عن القرويين.

إن القرويين في بدايتها ككل المؤسسات التي يرجع تاريخها إلى تلك العصور القديمة، كما رأينا كانت مسجداً صغيراً فلم يلبث أن تطور شكلاً ومضموناً عبر الأيام إلى ما رأينا، على نحو ما تم في جامعة السوربون مثلاً، فقد كانت في أول أمرها تعطي بعض الدروس في اللاهوت، يلقتها أحد الرهبان في حجرة قريبة من نوطردام بباريس، وفي أثناء القرن الثالث عشر المسيحي بنى أحد المحسنين ويدعى روبر دو سوربون منزلاً لإيواء طلبة اللاهوت الفقراء وذلك ما جعله يدعى من بعد بجامعة السوربون. وهكذا كان الشأن في جامعات بولونيا وأكسفورد وسلامنكا.

سيلفستر في القرويين

كما نرسل أبناءنا اليوم إلى دول أوروبا مثلاً، كانت البلاد المسيحية تتجه في عصور الازدهار الإسلامي إلى الأندلس، لتغترف من معين الحضارة العربية والآثار الإسلامية هناك. ولما كان تاريخ المغرب قد امتزج امتزاجاً وثيقاً بالأندلس، كان الطلاب الذين يردون على قرطبة العربية المسلمة أو على المدن والقرى التي في إدارتها، لا يجدون صعوبة في اجتياز البحر ليجدوا أنفسهم في بر العدو، ومن هنا ذاع الحديث حول وصول جيربير إلى المغرب، أو بالأحرى إلى مدينة فاس حيث أخذ بطريقة ما في جامعة القرويين عن مشايخها أيام كانت أوروبا تعيش عصورها الوسطى. ونعتقد أنه لو قام أحد بهذه الزيارة غير جيربير لأمكن أن تمر دون تعقيب، بيد أنه والأمر يتعلق بهذه الشخصية التي تبوأ بعد منصب البابوية وأصبحت تحمل اسم

سيلفستر الثاني، لا بد أن يكون لها آثار جد بعيدة، لأنها تمس أمماً أخرى، وتمس ديانة أخرى، ثم إنها تثير حساسيات من شأنها أن لا تسمح بمرور الرواية دون نقد وتمحيص، إن لم نقل دون تزييف أو تكذيب.

ونرى أنفسنا مطوقين بأن نجيب عن بعض التساؤلات التي أثارها زملاؤنا الباحثون ممن تناولوا هذا الموضوع، وأحب بادئ الأمر أن أذكر أن هذه الرواية ليست من صنع «المثقفين المغاربة» نسجوها حديثاً اعتزازاً بجامعتهم وحباً في إظهار مجدها، ولكنها رواية لأحد المستشرقين المسيحيين المتعمقين ممن كان لهم فضل قوي على الدراسات الإسلامية والعربية بما قدموه من مؤلفات ذات قيمة كبرى من الناحية الوثائقية، ويتعلق الأمر بالأستاذ جوزي بندلي بن صليب أو جوزي كريستوفيتش (Jouse Ponteleimon Krestovitch)، فقد نشر ضمن بحثه القيمة كلمة قصيرة ولكنها مركزة في مجلة الهلال المصرية، في الجزء الحادي عشر من السنة الأولى في أول يوليو من سنة (1893م) الموافق للسابع عشر من ذي الحجة من عام (1310هـ) ص (356) كانت الكلمة بعنوان: «أقدم مدرسة كلية علمية في العالم» كان فيما قاله الأستاذ كريستوفيتش: «... إن أقدم مدرسة كلية في العالم أنشئت لا في أوروبا كما كان يظن، بل في أفريقيا، في مدينة فاس عاصمة بلاد المغرب سابقاً، إذ قد تحقق بالشواهد التاريخية أن هذه المدرسة كانت تدعى (كلية القيروان) وقد أسست في الجيل التاسع للميلاد، وعليه فهي ليست فقط أقدم كليات العالم، بل هي الكلية الوحيدة التي كانت تتلقى فيها الطلبة العلوم السامية في تلك الأزمنة حينما لم يكن سكان باريس وأكسفورد وبارو (Paroue) وبولونيا يعرفون من الكليات إلا الاسم، فكان الطلاب يتواردون على كلية القرويين من أنحاء أوروبا وانكلترا فضلاً عن بلاد العرب الواسعة للانخراط في سلك طلابها، وتلقي العلوم السامية باللغة العربية مع الطلبة الطرابلسيين والتونسيين والمصريين والأندلسيين وغيرهم»، وهو أول من أدخل إلى أوروبا الأعداد العربية وطريقة الأعداد المألوفة عندنا بعد أن أتقنها جيداً في الكلية المذكورة كما يظهر ذلك من رسالته إلى الامبراطور أتون (Othon) مساعدته، التي أتى فيها على ذكر الصفر العربي، بقوله: «إني أشبهك بالرقم الخير من الأعداد البسيطة العشرية الذي يزداد قيمة بوضع أعداد أخرى عن يساره...». فهذا نحن هؤلاء نرى أنها

ليست «رواية مغربية»، ولكنها رواية عن علماء مختصين يصح أن نعدّهم مصدرًا هامًا لجوانب من حياة سيلفستر، ما تزال خفية عن بعض الباحثين، ويصح أن تكون كلماته البيّنة الواضحة جواربًا عن بعض الاستشكالات التي وقفت في طريق أولئك الكتّاب، وقد نشر تلك الكلمة في مجلة صاحبها «جرجي زيدان» مسيحي أيضًا، وكان الذين يردون عليه منازعه في كتابه (تاريخ التمدن الإسلامي) يتهمونه بالكيد لتاريخ الإسلام، فهو بعيد من أن يحاييه على حساب دينه.

الخزانة العلمية

وقد عرفت هذه المرحلة من تاريخ القرويين نوعًا من المجامع الأكاديمية، تجلّت في هذه المكتبات العلمية العديدة، وقد عرف عن علماء فاس أنهم يتبارون في اقتناء الكتب وانتساخها، وقد عرفنا الإمام العالم العارف يحيى الرابع (292-307 هـ) الذي قال فيه البكري: إنه كان يتوفر على عدد من الورّاقين، لا شغل لهم إلا نسخ الكتب. وما من شك في أن مكتبته كانت رهن إشارة رجال القرويين بالدرجة الأولى، لأن الكتب من مستلزماتهم، وإن شعار السلف الصالح كان يستهدف تعميم الفائدة، وخاصة في عصور نقية طاهرة كتلك العصور.

أما في العصر الزناتي الذي حظيت فيه القرويين كما علمنا بعناية (الناصر) الزائدة، بتوسعتها وتأثيرها، فإنه من غير المعقول أن لا تتجاوز عنايته ميدان المادة إلى صعيد الروح، كيف وقد عرف الناصر بشغفه الزائد بالكتب النادرة ونشرها بين الناس، ولذلك لا نشك في أن نصيبًا من تلك الكتب كان من حظّ القرويين، ويوجد بها إلى الآن كتاب شرح الفصوص في صناعة الطب، الذي يعتقد أنه للفارابي (339 هـ) ونسخة من تفسير ابن أبي زمنين الذي قرئ بقرطبة عام (375 هـ).

مقتطفات من كتاب:

الأزهر في ألف عام

لقد كان بدء التدريس بالجامع الأزهر في أواخر عهد المعزّ لدين الله الفاطميّ، حيث انعقدت أوّل حلقة دراسية في الجامع الأزهر في (صفر سنة 365هـ- 975م)، وقد قام بها قاضي القضاة أبو الحسن علي بن النعمان بن محمد القيرواني، فقرأ على الحاضرين الفقه الشيعيّ من كتاب (الاختصار) الذي يعتبر بحق مختصراً لفقه آل البيت.

وكانت تسجّل أسماء حاضري هذه المحاضرات، لتنظيم هذه الحلقات الدراسية، إلا أنّ هذه الدراسات كانت متعثّرة بعض الشيء، لأنّها كانت لا تتعدّى دراسة الفقه الشيعيّ، دون ما عداه من العلوم، حتى اتجه الوزير (يعقوب بن كلس) - الوزير لدى المعزّ لدين الله الفاطميّ - وكان وقتئذٍ وزيراً لدى ابنة العزيز بالله - إلى تدريس أصول الفقه الشيعيّ بالجامع الأزهر، وكانت دروسه تعقد يومي الثلاثاء والجمعة من كل أسبوع، حين كان يطالع دروسه من (الرسالة الوزيرية) التي تعتبر من أمّهات كتب الفقه الشيعيّ.

وكان ابن كلس قد أشار على الخليفة أن يفرّغ بعض العلماء، ويخلّع الرواتب عليهم ليُقبلوا على استيعاب مناهج توضع لهم في أصول الفقه الشيعيّ لدراستها وتدريسها.

ولأوّل مرة في تاريخ المعرفة والثقافة، نرى مسجداً في العالم الإسلامي كلّه، تدرّس فيه الدراسة العادية والعلوم الدينيّة دراسة منهجيّة، ويكون المدرّسون به تابعين

للدولة، تشملهم برعايتها والإنفاق عليهم وعلى الجامع وعلى التلاميذ أنفسهم، لتشجعهم على مواصلة الدراسة وتحصيل المذهب الفاطميّ.

فالأزهر، في هذه الفترة، كان على عاتقه مهمة تخرّيج الدعاة، ولذا كانت مناهج الدراسة به أربعة أنواع للحلقات الدراسية.

1- حلقات دراسية لدارسة القرآن وتفسيره، وكانت هذه الدراسات للعامة والخاصة على السواء، يجتمع فيها الأتقياء لسماع القرآن وتفسيره.

2- حلقات دراسية يتحلّق فيها الطلبة حول أستاذهم الشيخ، الذي كان يجلس وسطهم على كرسي عالٍ ليتدارسوا من حوله، ويسألوه ويجيبهم في الأمور الدينيّة.

3- حلقات المثقّفين أو مجالس الحكمة، كما كانت تسمّى قديمًا، وهذه المجالس كانت تنعقد يومي الإثنين والثلاثاء، وفي رواية أخرى إنّها كانت تنعقد يومي الإثنين والجمعة، من كلّ أسبوع. وكان يترأسها (داعي الدعاة) وكانت تضم جمهرة المثقّفين، وهي شبه تخصّصية، يناقش فيها المتحلّقون موضوعات في الفقه والتفسير والحديث، على مستوى أكاديمي وثقافي رفيع.

4- الحلقات النسائيّة: وكانت تعقد للنساء لإفهامهنّ أمور دينهنّ.

والأزهر، طوال هذه الفترة بالذات، اقتصرت الدراسة فيه على الدين واللغة والأدب والقراءات والنحو والمنطق والفلك.

وكانت أهمّ المراجع، في العصر الفاطميّ، كتاب (الاختصار) في الفقه للنعمان القيرواني، قاضي المعزّ لدين الله الفاطميّ، الذي خلفه ابنه قاضيًا أيضًا لدى المعزّ، وكتاب (اختلاف أصول المذاهب)، وكتاب (اختلاف الفقهاء)، وكتاب (دعائم الإسلام) وهذه الكتب كانت تعتبر، إبان العصر الفاطميّ، دُررَ الفقه، كما كانت تُدرّس (الرسالة الوزيريّة) التي وضعها ابن كلس، وكان له مختصر لهذه الرسالة سمّاه (مختصر الوزير) علاوة على وجود بعض الكتب في الرياضيات والفلك والتاريخ، كانت تُدرّس ضمن الدراسات في الأزهر إبان هذه الفترة.

مهامّ داعي الدعاة:

يُعتبر منصب (داعي الدعاة) من أرفع المناصب وأهمّها في الدولة الفاطميّة، لأنّ مهمّته توجيهيّة وإرشاديّة وثقافيّة، ولأنّ (داعي الدعاة)، في ظلال الحكم الفاطميّ، كان يعتبر المسؤول الأوّل عن الدعاة للمذهب الفاطميّ، وعن مدى تطبيقه في مصر والدول التي تدين بحكمها، وكان منصبه يلي منصب (قاضي القضاة) في المرتبة، لكنّه كان يقلّده في زيّه.

وداعي الدعاة، في هذا العهد بالذات، كانت له مكانته، لأنّه كان يعتبر همزة الوصل بين الخليفة الفاطميّ وطبقة الشيعة الفاطميّين، فلذا كان في مهامّ أعماله، الإشرافُ الفعليّ على سير الدعوة الفاطميّة والمريدين لها، وكان يأخذ العهد على كل من ينضوي في كنفها. ولذا كان مكتبه في داخل قصر الخليفة الفاطميّ نفسه، وكان المحاضرون ودعاة المذهب الشيعيّ، يفدون إليه كلّ يوم إثنين وخميس من كلّ أسبوع، ليعرضوا عليه المحاضرات التي ألقوها في أصول المذهب، وكان يتشاور معهم فيها، ويناقشهم في محتوياتها، ويبحث بعدئذٍ معهم المشاكل التي كانت تعنّ لهم إبان اجتماعاتهم، ويعمل على حلّها بأسرع وقت. وكان داعي الدعاة يعقد، تبعاً، عدة مجالس فكريّة، يُطلق عليها (مجالس الدعوة) وكان بعض هذه المجالس مخصّصاً للسيدات المؤمنات، ليلقنهنّ فيها أصول المذهب، وبقية المجالس كانت مخصّصة على النحو الآتي:

- 1- مجالس مخصّصة لأهل البيت العلويّ.
 - 2- مجالس لكبار رجال الدولة.
 - 3- مجالس لخدّام القصر الفاطميّ.
 - 4- مجالس للعموم والأهاليّ.
- كانت هذه المجالس تعقد، بخلاف الحلقات الدراسيّة التي كان يعقدها الدعاة، في الجامع الأزهر، كما بيّنت من قبل.
- 5- مجالس خاصة بنساء القصور الملكيّة.
- وكانت هذه المجالس تعقد لمن خاصة.
- أمّا محاضرات داعي الدعاة، فكان يوقّع عليها الخليفة شخصياً، قبل أن يلقبها. وهذا، بلا شكّ، لون من ألوان الرقابة، لضمان صحّة تطبيق المذهب الشيعيّ في

قاضي القضاة:

كان يجوز لقاضي قضاة الخليفة الجمع بين منصبه ومنصب (داعي الدعاة)، كما كانت تحوّل له كلّ سلطاته ومهامّه بالنسبة إلى الإشراف على تطبيق مذهبهم. وهذا الجمع بين المنصبين المهمّين في دولة الفوالم، يُعدّ شرفاً لا يناله إلاّ الموعودون، لأنّه قلّمَا وصل إلى هذه المرتبة العزيزة فقيهه، في عصر من عصور الخلافة الفاطميّة، لأنّ قاضي القضاة يلي وزير الخليفة مباشرة، حسب ترتيب مهامّ كبار الدولة الفاطميّة، ويليه مباشرة داعي الدعاة.

ولقد ذكر القلقشندي في (صبح الأعشى) أنّ الوزير، لمّا كان يُؤذن له بالمثل بين يدي الخليفة الفاطميّ، لا يؤذن له بالجلوس إلا بعد أن يلثم يده... ثم يتبعه قاضي القضاة الذي كان يجيّي الخليفة فقط بقوله: «السلام عليكم يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته». وكان قاضي القضاة هو الوحيد المستثنى من لثم يد الخليفة، احتراماً لمركزه، وإشارة إلى استقلال القضاة في العهد الفاطميّ.

وبهذا الأسلوب من المطابقة، جعل الحكّام الفاطميّون لقاضي القضاة مكانته بين الطوائف المختلفة. وكان (البروتوكول) المتّبّع، عندما يخرج أو يدخل الخليفة الفاطمي الجامع الأزهر، يتبعه الوزير بالسير على يمينه، وكان يسير على يسار الخليفة قاضي القضاة، وداعي الدعاة من خلفه، إشارة إلى أنّ داعي الدعاة تابع له.

الدراسة في العصر الأيوبي:

لقد كان عهد صلاح الدين الأيوبي يتميّز بتجاهل الجامع الأزهر، كمدرسة علميّة دينيّة لها مكانتها في العالم... ولا سيما أنّ المدارس العلميّة، في بلاد الأندلس، قد أفل نشاطها مع تقلّص النفوذ الإسلامي بها.

وكان صلاح الدين معنيّاً بإعادة المذهب السنيّ إلى مصر، وقد شايح الخليفة العباسي في بغداد... فلذا نراه يؤسّس المدارس التي تدرّس المذهب، ليشلّ كيان الحركة الفكرية ذات النزعة الخاصة بالشيعه في الأزهر.

وهذه المدارس، كان يشجعها ويغدق عليها لِيُدْرَسَ بها المذاهب الأربعة، وعين بها مشايخ يختصّ كلٌّ شيخ منهم بمذهب من هذه المذاهب الأربعة... ليشرّف على شؤونه وتدرّسه، وبهذه الدفعة الوثّابة من صلاح الدين الأيوبيّ، أعاد إلى مصر المذهب السنّيّ بحيويّة ونشاط... والأيوبيّون في عصرهم أغدقوا تبعًا لهذا الأموال على هذه المدارس وغمروها بالكتب وخصّصوا لها المدرّسين للقضاء على التشيع في مصر. والأزهر، في هذه الفترة التي عاناها، لم يتوانَ عن الاعتماد على كيانه بالمجهودات الذاتية، فنرى أساتذته وحدهم معينين بالدراسة فيه، ليبقى على مكانته الإسلاميّة الخالصة لله، وسط هذه التيارات المتباينة. فكان المدرّسون، يضاعفون دروسهم بمحاربة النهضة الفكرية إبان القرنين السابع والثامن الهجريّ. وكان تعدّد مجالات الدراسة فيه واختلافها وتنوعها وسيلةً لاستقطاب الطلاب من أرجاء العالم الإسلاميّ إليه... الذين وجدوا بها مجالات تستهويهم ليدرّسوا فيه... ورغم هذا كان يزور الأزهر أساتذة أجانِب في هذه الفترة...

فلقد زاره موسى بن ميمون، طبيبُ صلاح الدين الأيوبيّ ودّرّس به الطبّ والفلك والرياضة... وأتى إليه عبد اللطيف البغداديّ ودّرّس به، مدّة عام، فنّ الكلام والبيان والمنطق والطبّ...

فالأزهر، في هذه الفترة، كان معهدًا للدراسة وبقيت الحلقات تعقد به، ولو أن الدولة لم توله رعايتها واهتمامها، إلّا أنّه حافظ على مكانته العلميّة.

نظام الحلقات بالأزهر:

لقد كان نظام الحلقات بالأزهر متّبعًا منذ زمن، حيث كان يجلس الشيخ على حاشيته، بجوار أحد الأعمدة التي تخصّ مذهبه.. لأنّ أعمدة الأزهر كانت مقسّمة على (المذاهب الأربعة)، والطلبة يجلسون حول أستاذهم في حلقة بترتيب معيّن.. وكان الشيخ يقدّم للدرس بالبسملة والصلاة على النبيّ، ثمّ يملي درسه ويشرح للطلبة، من حوله، فقرّاته ويفسّرهما لهم. ومن هذا الإملاء كتبت المخطوطات التي تداولت ونسخت وطبعت... وبعد أن ينتهي من درسه كان يختمه بالفاتحة.

الدراسة في عهد المماليك:

لقد اعتبر بعض المماليك عصر النهضة الثانية للأزهر الشريف، في أعقاب الحكم الأيوبي لمصر... ففي عهد السلطان الظاهر بيبرس نودي فيه بالصلاة يوم الجمعة من ربيع الأول عام 686هـ بعد ما تعطلت به الصلاة مدة تصل إلى مائة عام.

في هذه الفترة... كان العالم الإسلامي يواجه فترة من أحرج الفترات التاريخية التي ألمت به... فعانت حضارة بغداد حرائق التتار... كما عانى المسلمون القتل في بلاد الأندلس حيث انحسر حكمهم... وأصدق وصف لهذه الحقبة ما ورد في كتاب (جامعة الأزهر) الذي صدر عنها حيث جاء فيه: وفي أوائل القرن السابع الهجري نفض الأزهر بمهمة تاريخية جليلة حينما استطاع أن يحتفظ بتراث الحضارة الإسلامية والعربية بينما عصفت بهذا التراث رياح المغول في الشرق. ففضت معاهد العلم في بغداد، كما غاضت منابع الثقافة العربية والإسلامية في الأندلس، وفتحت مصر صدرها للعلماء والطلاب الذين نزحوا إليها من الشرق ومن الغرب، فراراً من الظلم والوحشية، وغدا الأزهر الملاذ الحاني على هؤلاء العلماء والطلاب، وأخذ يتبوأ مركز الزعامة الفكرية والثقافية في مصر والعالم الإسلامي، وأصبح مسرحاً لنشاط جمهرة من أبرز العلماء أمثال عبد الرحمن بن خلدون وعبد اللطيف البغدادي وابن الفارض وابن خلكان والحافظ بن العسقلاني والقلقشندي والمقريزي وغيرهم.

فكان الأزهر رحباً عند استقبال هؤلاء العلماء المهاجرين إليه من كل صوب، فنهض متحملاً، على عاتقه، مهمة الحفاظ على التراث الإسلامي، وإبقاء شعلة المعرفة الإسلامية تبرق لجيوش المسلمين بالنصر على أعدائهم.

ولما أنشأ المماليك مدارسهم كالجوهريّة والأقبغاويّة والطيرسيّة، كان على علماء الأزهر مهمة التدريس بهذه المدارس التي أنشأها المماليك.

وهذه الفترة، جعلت الأزهر جامعة إسلامية عالمية، تنفّس منه كلّ الثقافات الإسلامية، فظهرت لهذه الدفعة التطورية آثار خلّفتها لنا، فبرز فيها علماء أفاض منهم الإمام البوصيري والمقريزي والنويري والديري والسيوطي وابن أبياس والعسقلاني وغيرهم

من كبار علماء المسلمين، وكان لهؤلاء العلماء المسلمين مؤلفات تعتبر من الشوامخ العالمية والثقافية.

والكتب التي كانت تدرّس بالعصر الأيوبي والمملوكي شملت: المنطق والفلسفة والطب.

قام بتدريسها: موسى بن ميمون، وعبد اللطيف البغدادي، وابن خلدون، حيث درّس مقدّمته، والدماميني، والعسقلاني كان يدرّس فتح الباري ولسان الميزان والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، والشعراني كان يدرّس مؤلفاته في التصوّف والفلسفة والتفسير، وغير هذه الكتب التي كانت سائدة إبان هذين العصرين.

وفي عهد المماليك كانت تدرّس بالأزهر كتب في الأحاديث المعروفة للبخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، علاوة على مسند الإمام أحمد والشافعي، وأول ما دُرّس في عهد السلطان بيبرس كان مذهب الإمام الشافعي. وخلال هذا العهد الذي حكم فيه المماليك البحريّة والبرجيّة، كما يصفه (دودج)، حقّق الأزهر أهدافاً مهمّة وسامية منها: إحياء علوم الدين.

وهذه الدراسة في الأزهر الشريف، كان أساسها حفظ المتون عن ظهر قلب كبدء للتعلّم. وعلى هذا، سارت الدراسة بلا مواعيد، أو التزام المدرّسين بدروسهم في العصر المملوكي والعصر العثماني، من بعده، دون أيّ قوانين تنظيميّة للدراسة. وفي عام 1382 م قدم إلى مصر المؤرّخ الفيلسوف (ابن خلدون) في عهد السلطان البرقوقي وحاضر بالجامع الأزهر، ولقد ذكر في مقدّمته أنّ كثيرين وفدوا من العراق وشمال أفريقيا وغرب آسيا، بعدما طردهم المغول، ناجين بحياتهم، ولقد حظيت القاهرة منذ هذه الفترة بمركز بغداد الثقافي وأصبحت أهمّ مركز للثقافة في بلاد العرب، لا سيما وأنّ في عهد السلطان البرقوقي انتعش التصوّف الإسلاميّ واهتمّ الجامع الأزهر الشريف بتدريسه.

الدراسة في الأزهر خلال العهد العثماني

أما الثقافة العربية عمومًا فقد انحدرت وتخلّفت بشكل واضح في العهد العثماني وذلك نظرًا إلى أن الأتراك وإن كانوا مسلمين إلا أنّهم لم يتعلموا اللغة العربية فبقوا

بعيدين عن روح الثقافة العربية، ثم لأن هذه السيطرة العثمانية هبطت بالعرب إلى أمة تابعة فضعفت معنوياتها ونقصت ثروتها، وصرفت عن تيار التقدّم الذي لا ينشط إلا في ظل السيادة والحريّة. ثم أن سلاطين آل عثمان ابتداءً بسليم الأول وبعد إتمام سيطرته على العالم العربي (ما عدا اليمن ومراكش) كانوا ينقلون العلماء ومهرة الصنّاع والفنانين إلى اسطنبول حتى أفقروا الوطن العربي من أفاضل رجاله في مختلف الميادين. فرحفت الأعجمية على اللغة واختفت البحوث الفلسفية والعلمية وأُغلق باب الاجتهاد في الفقه. (من كتاب: الفكر التربوي العربي الحديث، دكتور سعيد اسماعيل علي).

لقد تميز العهد العثماني، بالنسبة إلى الأزهر، بتعيين العثمانيين رئيسًا للمشايخ بالأزهر، وأطلقوا عليه (شيخ الجامع الأزهر)، وكان يعتبر رئيسًا للعلماء الذين يدرسون في صحن الجامع الشريف. وتعيّن، تبعًا لهذا النظام- كما هو مجمع عليه- الشيخ محمد الخرشبي أول شيخ للجامع، وكانت مهمته الإشراف على سير الدراسة به وإدارته.

تعرّض الأزهر في عهد السلطان سليم الأول، للاعتداء عليه عندما أخذ كثير من علمائه عنوة، فقد قبض عليهم وأرسلهم إلى (اسطنبول) لتحطيم الكيان الثقافي في مصر، لأن هذا الكيان كان يتمثّل بالجامع الأزهر الشريف.

ومنذ هذه الحقبة، عانى الأزهر التدهور الفكري الذي بدأ بأرواقته، وبدأت العلوم العقلية تُحارب فيه بتعصّب ونفور، بإيعاز من الحكّام العثمانيين والولاة، الذين كانوا يهدفون إلى عزل مصر عن التطوّر الحضاري العالمي، وغلق الأبواب على أبنائها دون الثقافة في الأزهر، حتى لا تتطوّر أو تطلّ على منافذ المعرفة الفكرية في العالم، فكانت الدراسة خلال العهد العثماني لا تتعدى العلوم الدينية. وكان، من شدّة التعصّب ضدّ التجديد بالأزهر، والتمسك بالقديم والإبقاء عليه بلا أدنى تطور، أنّ الخديوي، لما سادت المطالبة بالتطوّر وإدخال العلوم العقلية كالرياضة والطبيعة، أمر الدولة باستصدار فتوى من الشيخ محمد الأمباني، شيخ الجامع الأزهر، عندما حضر إليه العلماء يستفتونه في جواز تدريس العلوم العصرية في الجامع، وذلك في عام 1887م فأقرّ إدخال هذه العلوم ظاهرًا، ولكنّه كان، حقيقة، يعرقل تطبيق تطوير للعلوم

بوسائل شتى.

اتبع الحاكم العثماني في مصر عدّة أساليب للوقاية بين طلاب الجامع، بالدرس بين علمائه وأساتذته، إلى درجة أنهم كانوا يدفعون بالصحف، وقتئذٍ، للهجوم على العلماء المسلمين، واتهامهم بأنهم زناديق، فكان يردّد على هذه الصفحات فرية تقول إنّ تدريس العلوم الحديثة خرابٌ على الإسلام والمسلمين.

لكن على الرغم من هذا، فالأزهر، في العهد العثماني، حمل عبء الحفاظ على الثقافة الإسلامية ونشرها طوال ثلاثة قرون، لا سيما أنّه كان قبلة العالم الإسلامي، يتوجّه إليه كلّ طالب علم في العالم.

ولقد كان جهل الحكّام العثمانيين السبب الأوّل والأساسيّ لتدهور الثقافيّ بالأزهر، وكانوا يستمرّثون الظلم، فنهبوا الأوقاف الخاصّة به- وفرضوا اللغة التركيّة ليتخاطب بها الشعب، إلى درجة كانت فيها اللغة العربية معرّضة للزوال، فلولا وجود هذا الطود الأشمّ وصموده ضدّ مختلف التيارات، وإبقاؤه بعزيمة لا تلين الدراسة داخل أروقته- برغم قسّص الدراسة به على العلوم الدينية واللغوية- لكانت اللغة العربيّة قد تعرّضت لهزات فكريّة ضارية.

والأزهر، في عام 1718م، إبان فترة الوالي العثماني أحمد باشا كور، الذي كان والياً علماً بعدة معارف منها الرياضة والفلك، حاول أن يُدخل هذه العلوم ضمن الدراسة بالأزهر، فطلب إلى الشيخ عبد الله الشبراوي، وغيره من العلماء، أن يدرّسوا علوم المقاصد من رياضة وعلوم الهيئة (الفلك).

والأزهر، طوال القرن الثامن عشر، كان يهتمّ- حسب ما ورد في حوار بين الوالي أحمد باشا كور والشيخ الشبراوي- بتدريس علوم المنطق والتوحيد والفرائض والمواريث وبقية العلوم الشرعية.

ودرّس الأزهر، في هذه الفترة، كما جاء في سند الشيخ أحمد الدمهوري: الحساب والميقات والجبر والمقابلة والمنحرفات وأسباب الأمراض وعلاماتها وعلم الاسطرلاب والزيج والهندسة والهيئة وعلم الأرثماتيقي وعلم المزاول وعلم الأعمال الرصدية وعلم المواليث الثلاثة: وهي الحيوان والنبات والمعادن، وعلم استنباط المياه، وعلاج البواسير، وعلم التشريح، وعلاج لسع العقرب، وتاريخ العرب والعجم.

لكن، على الرغم من هذا كله، فالولاة العثمانيون قد أشاعوا فرية تحريم دراسة العلوم العقلية لتعيش مصر في تخلف فكري إلى درجة أنّ علماء الأزهر اعتقدوا، بمرور الوقت، أن دراسة الفلسفة كفر، كما ذكر لنا علي باشا مبارك.

المرجع:

* الأزهر في ألف عام. الدكتور أحمد محمد عوف. عدد خاص بمناسبة الاحتفال بالعيد الألفي للأزهر الشريف. سلسلة البحوث الإسلامية - 1402هـ - 1982م.

الملحق الرابع

أوقاف بعض الجامعات
والمعاهد الأميركية
في عامي 2005 و2007

Rank	Institution اسم المعهد	Endowment 1 (2005) (\$) قيمة الأوقاف	Endowment 2 (2007) (\$) قيمة الأوقاف
1.	Harvard Universtiy (Cambridge, Mass.)	25.473.721.000	34.634.906.000
2.	Yale University (New Haven, Conn.)	15.224.900.000	22.530.200.000
3.	Stanford University (Stanford, Calif.)	12.205.000.00	17.164.836.000
4.	Univ. of Texas System Administration (Austin, Tex.)	11.610.997.000	15.613.672.000
5.	Princeton Universtiy (Princeton, N.J.)	11.206.500.088	18.787.200.000
6.	Massachusetts Institute of Technology (Cambridge, Mass.)	6.712.436.000	9.980.410.000
7.	University of California	5.221.916.000	6.439.436.000
8.	Columbia University (New York, N.Y.)	5.190.564.000	7.149.803.000
9.	Texas A&M University (College Station, Tex.) ²	4.963.879.000	6.590.300.000

223 أوقاف بعض الجامعات والمعاهد الأميركية في عامي 2005 و 2007

10.	Univ. of Michigan (Ann Arbor, Mich.)	4.931.338.000	7.089.830.000
11.	Emory University (Atlanta, Ga.)	4.376.272.000	5.561.743.000
12.	Univ. of Pennsylvania (Philadelphia, Pa.)	4.369.782.000	6.635.187.000
13.	Washington University (St. Louis, Mo.)	4.268.415.000	5.567.843.000
14.	Northwestern University (Evanston, Ill.)	4.215.275.000	6.503.292.000
15.	Univ. of Chicago (Chicago, Ill.)	4.137.494.000	6.204.189.000
16.	Duke university (Durham, N.C.)	3.826.153.000	5.910.0280.000
17.	Cornell Universtiy (Ithaca, N.Y.)	3.777.092.000	5.424.733.000
18.	Univ. of Notra Dame (Notre Dame, Ind.)	3.650.224.000	5.976.973.000
19.	Rice University (Houston, Tex.)	3.611.127.000	4.669.544.000
20.	Univ. of Virginia (Charlottesville, Va.)	3.219.098.000	4.370.209.000

2005:

- 1- Institutions ranked by size of endowment in 2005.
- 2- Includes foundations.

2007:

- 1- Institutions ranked by size of endowment in 2007.
- 2- Includes foundations.

أهمية وسائل الاتصال والمعلومات في العملية التعليمية

أورد موقع boudina.site.voila.fr مقالة للأستاذ عبد العزيز بو دينة قدّمها في أكاديمية مراكش تانسيفت الحوز حول: «أهمية وسائل الاتصال والمعلومات في العملية التعليمية» نورد بعض مقاطعها:

إنّ التقنيات الحديثة، في مجال المعلومات والاتصال، تمكّن من تقوية المؤهلات العقلية مثل القدرة على التفكير والبرهنة، وحلّ المشاكل، والتدرّب على التعلّم والإنتاج.

إنّ أغلب المتعلّمين يظهرون، وبشكل تلقائيّ، اهتمامًا كبيرًا لأغلب الأنشطة التعليمية المعتمدة على تكنولوجيا حديثة. ويحدث العكس عند استعمال مقاربات تقليدية.

وأغلب التحقيقات والمعاینات الميدانية وبرامج التتبّع، التي أجريت في الدول المتقدمة تؤكّد ذلك.

وانطلاقًا من خلاصات لعدّة دراسات وأبحاث ميدانية، أُجري أغلبها في الولايات المتحدة الأمريكية، في مستويات تعليمية مختلفة، حول استعمال الوسائل التكنولوجية في الحقل التربويّ، التي تثير الانتباه بشكل كبير، أستخلص هذه النماذج، لتأخذ فكرة عمّا يجري في الدول المتقدمة، حتى نعرف ما ينتظرنا من مجهودات في المستقبل.

أجرت مجموعة من الباحثين في 1990، على مستوى السنة النهائية من الابتدائي، بحثًا لمُدّة سنة، حول استعمال أنظمة التواصل والمعلومات في دروس

اللغة. وفي نهاية السنة، تمّ تقويم التجربة، وأظهرت النتيجة أن المجموعة المستهدفة من التلاميذ حققت قفزة ثلاث سنوات، في ما يخصّ التحكّم في قواعد اللغة، وستين بالنسبة إلى التعبير اللغوي، وسنة واحدة بالنسبة إلى القراءة والرياضيات. وأجريت تجربة أخرى في المستوى التعليمي نفسه (السنة النهائية- ابتدائي)، حول مشروع ندوة إلكترونية، حول مواضيع علمية واجتماعية، حيث تمكّن التلاميذ، خلال سنة واحدة، من مكاتبة أساتذة وطلبة جامعيين، ومدّرسي التعليم الثانوي، وتلاميذهم.

وتمّ تقويم التجربة في آخر السنة، حين خضع التلاميذ المستهدفون لاختبارات في القراءة والكتابة. وكانت النتيجة أنّ هؤلاء التلاميذ، تجاوزوا، في ما يخصّ فهم النصوص، ما يمكن تحقيقه خلال سنتين تعليميتين، وسنة ونصف، بالنسبة إلى معرفة شرح المفردات والتعبير الكتابي، وأقل من سنة في القواعد. ذلك أنهم بذلوا مجهودات كبيرة في قراءة المراسلات الإلكترونية التي تواصلوا بها وفهمها، وأنتجوا أقلّ منها عددًا.

نستخلص، من النموذجين، أهمية استعمال التكنولوجيا الحديثة في المجال التربويّ، قصد تحقيق أهداف وقدرات محدّدة حسب مشاريع تعليمية محدّدة، وفي وقت أقلّ ممّا يتطلّبه تحقيقها بالوسائل التقليدية.

وفي تقرير نشره «مكتب تقويم التكنولوجيا Office of Technology Assessment» سنة 1995، تمّ تأكيد أهمية التحفيز التي يُحدثها استعمال التكنولوجيا وسط التلاميذ، من مختلف الأعمار.

ومن أهمّ العوامل المحفّزة للتلاميذ: المحيط، والوسائل التكنولوجية، والمضمون الذي تقدّمه، بشكل يثير اندفاع التلاميذ مباشرة إلى المشاركة، الشيء الذي تفتقده الكراسيات والوسائل التعليمية التقليدية.

إنّ الوسائل التكنولوجية ذات قدرة تفاعلية، تسمح للتلاميذ بالانخراط والمساهمة في أنشطة تدفعهم إلى الإبداع ومشاركة غيرهم. ويزداد تركيزهم على نشاط تعلّمي بنسبة 20٪، عند استعمال «نظام تعلّمي مدمج» (Système d'Apprentissage Intégré). بحث أجراه: Western Institute for Research

and Evaluation سنة 1995.

وفي دراسة أجراها في نيوزيلاندا مجموعة من الباحثين، سنة 1996، تبين أن: استعمال الحاسوب بشكل مستمر، لم يكسب التلاميذ «كفايات تكنولوجية» فحسب، بل كذلك مؤهلات ليصبحوا «منتجين للمعارف Producteurs de connaissances». وكل مشروع أنجزوه، يعتبرونه مشروعاً جماعياً، يمكن عرضه على العموم، قابل لتعليق الأساتذة ونظرائهم وتقويمهم، وهم على استعداد للمساهمة الفعالة في بلورة معارفهم وتقويمها.

وأجريت تجربة أخرى بالولايات المتحدة حول مشروع: «ACOT»

(Apple Classrooms of Tomorrow) المشروع الذي أنتجته وتبنته شركة Apple للمعلومات، تمت تجربته لمدة 10 سنوات، ما بين 1985 - 1995، بمؤسسات ابتدائية وثانوية، تؤكد نتائجه تنمية علاقات العمل الجماعي بين التلاميذ. وتبرز هذه التجربة اهتمام شركات إنتاج البرامج Logiciels بالجودة وتتبع النتائج، لأهداف اقتصادية. وتجدر الإشارة إلى أن أغلب البرامج التعليمية Logiciels Éducatifs تصمّم للاستعمال الفردي. لكن، داخل المؤسسات، لا يمكن إيجاد حاسوب لكل تلميذ، فعلى الأقل يشغل تلميذان أو أكثر بحاسوب واحد. وفي هذا الإطار، تحدث التفاعلات بين التلاميذ أنفسهم، وبينهم والمحيط التعليمي الذي يوضع رهن إشارتهم (أساساً، الحاسوب وأوراق العمل والتوجيهات).

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.
2. أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه. سنن ابن ماجه. شرح سنن ابن ماجه الإمام جلال الدين السيوطي.
3. زكي الدين المنذري. الترغيب والترهيب من الحديث الشريف. تحقيق إبراهيم شمس الدين. دار الكتب العلمية.
4. محمد بن مفلح بن محمد المقدسي. الآداب الشرعية.
5. الحافظ البيهقي. المدخل إلى السنن الكبرى. تحقيق د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي. دار الخلفاء للكتاب الإسلامي. الكويت. 1404هـ.
6. أبو عمر بن عبد البر القرطبي. جامع بيان العلم وفضله/ باب ذكر استعاذة رسول الله صلى الله عليه وسلم. دار الكتب العلمية، ط1، 2007م.
7. رواه الإمام أحمد في مسنده والترمذي في صحيحه وابن ماجه في سننه.
8. الإمام محمد بن اسماعيل الأمير الصنعاني. سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام. تحقيق محمد صبحي حسن حلاق. دار ابن الجوزي. المملكة العربية السعودية. ط1. 1421هـ.
9. د. محمد علي الصلابي. دولة السلاجقة. دار المعرفة، بيروت، ط1، 2006م.
10. زيغريد هونكه. شمس العرب تسطع على الغرب. ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي. منشورات المكتب التجاري، بيروت، ط1، 1964م.
11. د. أحمد محمد عوف. الأزهر في ألف عام. مجمع البحوث الإسلامية، الأزهر، 1982م.
12. د. عبد الحليم عويس. الحضارة الإسلامية. ثوابتها وفضلها على الحضارة الإنسانية. مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط1، 2009م.
13. شاكر مولوي. الموجز في تاريخ العلوم عند العرب. دار الرشد الإسلامية، الأزهر، 1982م.

14. عباس محمود العقاد. أثر العرب في الحضارة الأوروبية. دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ط3، 2005م.
15. أبو حامد محمد بن محمد الغزالي. إحياء علوم الدين. دار المعرفة، بيروت، 1982م.
16. ابن قتيبة الدينوري. عيون الأخبار. تحقيق يوسف الطويل ومفيد قميحة. دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2009م.
17. الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني. محاضرات الأدباء ومحاورات القراء والبلغاء. دار الأرقم. 1954م.
18. د. أحمد الشلبي. تاريخ التربية الإسلامية. دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، القاهرة، 1954م.
19. د. عبد الأمير شمس الدين. الفكر التربوي عند عبدالكريم بن محمد السمعاني. الشركة العالمية للكتاب، ط1.
20. د. سعيد اسماعيل علي. أعلام تربية في الحضارة الإسلامية. دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط1، 2008م.
21. أحمد بن عبد ربه الأندلسي. العقد الفريد. ج2.
22. الإمام برهان الدين الزرنوجي. تعليم المتعلم على طريق التعلم. المكتب الإسلامي، بيروت، ط2، 1996م.
23. د. يوسف القرضاوي. نحو فقه ميسر معاصر. مكتبة وهبة، القاهرة، ط2، 2008م.
24. حاجي خليفة. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2008م.
25. أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان. وفيات الأعيان وأنباء آخر زمان. تحقيق إحسان عباس. دار صادر، بيروت، 1977م.
26. أبو حامد الغزالي. الرسالة اللدنية. شركة الطباعة الفنية.
27. معجم الأدباء. 6:282.
28. محمد بن سحنون. آداب المعلمين. تحقيق إبراهيم فؤاد. الدار التونسية للطباعة والنشر. 1979م.
29. ابن سينا. القانون. مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، ط1، 1998م.
30. عبد الرحمن بن خلدون. مقدمة ابن خلدون. دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2009م.
31. أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري القيرواني القابسي. الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين. الشركة التونسية للتوزيع، ط1، 1986م.

32. د. رشيد أحمد طعيمة. الجودة الشاملة في التعليم. دار المسيرة، عمان، ط1، 2006م.
33. عبد الفتاح أبو غدة. الرسول المعلم وأساليبه في التعليم. مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب.
34. تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام 2002 (صادر عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي - الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي).
35. تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام 2004 (صادر عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي - الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي).
36. الصحافي البريطاني براين ويتاكر. أين الخلل الحقيقي في الشرق الأوسط. صحيفة الجارديان البريطانية.
37. عبد الحسن الحسيني. استراتيجيات العلوم والتعليم في إسرائيل والوطن العربي. الدار العربية للعلوم، ط1، 2007.
38. وضع البحث العلمي في العالم العربي. بحث مقدم من د. مصطفى عثمان اسماعيل. مؤتمر المنتدى العالمي للوسطية في عمان.
39. وثيقة الأونيسكو عام 1951م.
40. وثائق المؤتمر الثاني عشر للوزراء المسؤولين عن التعليم العالي والبحث العلمي في الوطن العربي. L'atlas de civilisations - بيروت 12 أيلول 2009م.
41. عبد سعيد عبد اسماعيل. العولمة والعالم الإسلامي أرقام وحقائق. دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع. جدة، ط1، 2001م.
42. خطة تطوير التعليم في الوطن العربي. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بالتعاون مع جامعة الدول العربية في تونس عام 2009م.
43. الإمام أبو حامد الغزالي. أيها الولد المحب. دار الفتح للدراسات والنشر، ط1، 2010م.
44. Evaluation of warning/Bush1997.
45. مؤتمر القمة العالمي. الابتكار في التعليم. الدوحة، 17-19 تشرين الثاني 2009.
46. ملحق رقم 1 - الأوقاف على التعليم.
48. د. محسن خضر. مستقبل التعليم العربي بين الكارثة والأمل. الدار المصرية اللبنانية، ط1، 2008م.
49. د. ماريا حبيب. مؤتمر الحدائثة في التعليم المنعقد في مجمع العزم التربوي، بتاريخ 11 و12 أيار 2012م. بحث بعنوان: التعليم بين الحدائثة والوقائية.
50. عبد الرحمن الباني. مدخل إلى التربية في ضوء الإسلام. المكتب الإسلامي، 1980م.

الجرائد والمجلات:

1. جريدة السفير.
2. مجلة غدي.
3. جريدة الحياة.
4. مجلة المنار.
5. مجلة حراء.

المواقع الإلكترونية:

1. www.islamweb.net
2. www.ahmedaldhurafi.maktoobblog.com
3. www.marefe.org
4. www.saaid.net
5. www.ssnp.net
6. www.aljazeera.net
7. www.adiga.org
8. www.globalarabnetwork.com
9. www.arab-ipu.org
10. www.awu-dam.org
11. www.dialogueonline.org
12. www.barasy.com
13. www.annabaa.com
14. www.cksu.com
15. www.ac.ly
16. www.ikhwan.net
17. www.nusrah.com
18. www.arabiya.net
19. www.faculty-ksu.edu.sa
20. www.safita.com
21. www.ta9weer.com
22. www.elaph.com
23. www.squ.edu.com
24. www.aec.edu.com